

عبد الإنكليز.. عن نشأة مملكة ابن سعود



كوكس ابغ ابن سعود بلهجة قاطعة انه هو من سيخط الحدود بنفسه (ارشييف)

أو أن يرفعه فوق عنقه. فلم يجد شيخ آل خليفة حينها بداً من أن يرفعوا على أكتافهم، بدلاً من اللورد، عرشه المصنوع من الذهب والفضة، والذي جاء به كيرزون خصيصاً من الهند. وكانت تلك هي وسيلة أفراد الأسرة الحاكمة في البحرين للإعراب عن مدى إجلالهم وإخلاصهم لبريطانيا العظمى (5).

أخاصك... أسبيلك

لقد كانت هناك ثلاثة أسباب تفسر لماذا تجنبت بريطانيا التعويل على ابن سعود، في أوائل ظهوره على مسرح الأحداث الجديدة في بداية القرن العشرين. وكان السبب الأول يكمن في صيت السعوديين السيئ الذي اكتسبوه قبل قرن، باعتبارهم جماعة دينية متطرفة، وغير مروّضة، وطالما أثارت القلاقل والشغب والمتاعب نتيجة ترمتها ودمويتها وشهيتها الدائمة للتوسع. وكان التراث الوهابي يثير شكوكاً حقيقية في إمكانية طمع السعوديين من جديد بما صار تحت أيدي البريطانيين من مشيخات الساحل المتصالح، إن استتب الأمر لابن سعود في نجد. وأمّا السبب الثاني فكان استرضاء تركيا - في المدى القصير - وهي التي ترى لنفسها حقوقاً وسيادة على «سنجق نجد». ولم يكن من مصلحة لندن أن تثير سخط اسطنبول أكثر دعمها لبديوي متمرد عليها. وكانت السياسة الخارجية البريطانية تحسب للعثمانيين حساب أنهم ما زالوا المتحكمين في مضيق الدردنيل، وهو ممر بحري أساسي نحو روسيا. وأمّا السبب الثالث لصعود بريطانيا عن تودد عبد العزيز لها، فيمكن في أن حركته المغامرة لاسترداد ملك أبائه من ابن رشيد المتحالف مع العثمانيين، كانت فرصها في بداياتها أقرب إلى الفشل منها إلى النجاح، وذلك لتفاوت الإمكانيات الكبير بين الخصمين. ولقد كتب الوكيل السياسي البريطاني في الكويت بتاريخ 3 أيلول 1904 رسالة إلى المقدم البريطاني في بوشهر، قال فيها إن الاحتمال بعيد جداً في أن يستطيع ابن سعود تثبيت وضعه دون مساعدة خارجية، ما قد يعني سقوطه في وقت قصير. وهو لن يجد إلا حليفه مبارك ليلجأ إليه في كل مشكلة. ثمّ شرح الوكيل البريطاني بالكويت كيف أن مبارك يرسل للرياض دعماً أسبوعياً من الأسلحة والذخيرة والمؤن (6).

على أن الملاحظ يجد أن حكومة الهند البريطانية كانت تبدي في سياستها للخليج العربي تبايناً ما مع استراتيجيات وزارة الخارجية في لندن. ولقد بدا ذلك في غضها الطرف وعدم وقفها حجر عثرة في طريق دعم مبارك الصباح لأمير الرياض الجديد عند العزيز. ولم تكن أحلام شيخ الكويت أيضاً خافية عنها، وهو الذي طالما هباً نفسه لكي يصير سيد بلاد نجد الجديد عبر تحريكه لابن سعود. ولقد ظل مبارك يتوهم يوماً أن عبد العزيز ما هو إلا «دمية» يحركها كما يشاء. وفي مراسلة إلى المقدم البريطاني في بوشهر بتاريخ 24

العشرين: حاجز يخنق العراق في بزّه، ويعيقه - إلا قليلاً - عن الوصول إلى صفاق البحر. وأمّا إمارة ابن سعود الصحراوية فلم تكن تفيد بشيء ذلك التدبير كله.

ولقد وصل الصدود بالبريطانيين حد أنهم عندما علموا بأن عبد الرحمن آل سعود (والد عبد العزيز أمير الرياض الجديد) سيقيم زيارة للكويت في بداية عام 1905، صدرت أوامر إلى الوكيل البريطاني بالكويت الكابتن نويس، لكي يتحاشى بمقابلة «الإمام السعودي». بلى، لقد مرّ زمان كان فيه البريطانيون يعتبرون أي اتصال مباشر مع أمير سعودي أمراً غير مرغوب فيه!

على أن نظام المشيخات الخليجية المحمية من بريطانيا، والذي تمنى عبد العزيز أن يدخل في نطاقه، كان نظاماً يستحق التوقف عنده لفهم حجم الاستلاب الذي



التعويل على عبد العزيز تعثر بسبب خسارته المهينة ضد قبائل شمر عام 1915



مثله المستعمر البريطاني لعيده من شيوخ العرب. ولقد حفظت لنا المصادر باللغة الإنكليزية مشاهد كثيرة طريفة ودالة. ومن ذلك ما حصل في البحرين، في 26 تشرين الثاني 1903، حين وصل نائب الملك في الهند اللورد جورج ناثنال كيرزون إلى الأرخييل العربي الصغير، في السفينة «هاردينغ»، وبرفقته ثمانين سفن حربية بريطانية أخرى، للاجتماع بالشيخ عيسى بن علي بن خليفة. وكانت المنامة هي المحطة قبل الأخيرة ضمن محطات جولة كيرزون الخليجية في مسقط والشارقة وبندر عباس والكويت. ولم تكن موانئ المشيخات العربية الصغيرة في ذلك الزمن قادرة على استقبال سفن بريطانيا الحربية الضخمة. فكان الزوار يهبطون من سفنهم متجهين إلى البر عبر زوارق. وكان عبيد شيوخ الخليج يعمدون إلى استقبال زوارق الضيوف المجلين وهم يسوّسون خيولاً وراءهم خائضين في البحر. كل ذلك ليمتطي الزائر الأوروبي حصاناً، فلا يضطر إلى تلويث حدائه بفضلات الغائط التي كانت تملأ أرجاء الشاطئ. وكان رجال البحرية البريطانية إذا نزلوا من سفنهم، يشعل كل واحد منهم سيجاراً لمكافحة تلك الروائح الكريهة المنبعثة من الشاطئ. وأمّا اللورد كيرزون وضباطه الكبار، فقد كان لهم نصيب آخر حافل من إجلال آل خليفة. فلقد أمر الشيخ عيسى أبناءه أنفسهم كي يحملوا على أكتافهم الرجال البيض المجلين. ولكن اللورد أبى أن يلمسه أحد

بكثير من الأضاليل. ولقد دأبت السردية الرسمية السعودية مثلاً على تهميش الدور البريطاني في نشأة الكيان السعودي، أو تجاهله، متحاشية التطرق إليه. وأمّا السرديات المعارضة لآل سعود فقد أطنبت، بدورها، في تضخيم تلك العلاقة، والنفخ فيها، ووصفها بالمؤامرة حيناً، وربطها بالأصول اليهودية (المزعومة) للعائلة المالكة السعودية حيناً آخر (يمكن اعتبار كتاب «تاريخ آل سعود» لناصر السعيد أبرز مثال على ذلك التهويل الدعائي الفج). ولكن الوثائق البريطانية - ولا سيما ما تضمّنه القسم التاريخي في الموسوعة الرسمية «لديلة الخليج الفارسي وعمان ووسط الجزيرة العربية» (3) التي أشرف على إعدادها المستشرق والإداري والسياسي جون غوردن لوريمر في العقدين الأولين من القرن العشرين، لصالح حكومة الهند البريطانية - تمنحنا مدخلاً إلى رواية أكثر موضوعية ومنطقية واتساقاً وإنصافاً عن حقيقة الدور البريطاني في صنع ملك عبد العزيز آل سعود. بل إن المراسلات التي تضمّنها ذلك الدليل بين الدبلوماسيين البريطانيين في منطقة الخليج وبين رؤسائهم في نيودلهي تدحض تماماً السردية القائلة بأن عودة آل سعود الثالثة إلى السلطة في بداية القرن العشرين، كانت خطة بريطانية مذبذبة.

في المقابل، فإنّ موسوعة «لديلة الخليج» (التي صنفها الحكومات البريطانية المتعاقبة زهاء 70 عاماً، تحت بند «سري/حكر على العمل الرسمي») تطلّعتنا على جملة من المراسلات التي بدأت منذ سنة 1902، وبعثها عبد العزيز آل سعود وكذلك أبوه عبد الرحمن إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين، وإلى المقدم السياسي البريطاني في بوشهر. وكان الهدف من تلك المراسلات خطب ودّ البريطانيين، وعرض خدماتهم عليهم. ولكن جميع تلك العروض السعودية التي تستجدي الوصول لم تلق أي صدى من طرف وكلاء بريطانيا في المنطقة. فطيلة عقد كامل من الزمن، لم يكلف نفسه المقدم السياسي في بوشهر (والذي لم يكن آنذاك سوى الرائد بيرسي كوكس)، ولا كلف أي واحد من مساعديه الوكلاء السياسيين في المحميات الخليجية ليردّ على رسائل ابن سعود التي عرض في بعضها وضع إمارته الرياض تحت نظام مشيخات الساحل المتصالح التي يحميها التاج البريطاني، ويدبّر لها شؤونها الخارجية، بل إن عبد العزيز زاد فعرض أنه يقبل بوكيل سياسي بريطاني في الرياض، أسوة بمشايخ البحرين والكويت ومسقط، وتكون للوكيل سلطة الإشارة عليه أو نهيه (4).

ويبدو أن آل سعود استخلصوا من إقامتهم تحت جناح الشيخ مبارك الصباح أثناء سنوات المنفى الكويتي، دروساً عدة. وأبرزها أن كرسي الأمير لا تستقر قوائمه في صحراء العرب حتى يلوذ صاحبه بحماية بريطانية تمنحه صك الشرعية، وتردّ كيد الأعداء عنه. ولقد رأى عبد العزيز بأن عينه كيف أن سفينة حربية بريطانية واحدة (هي «بيرسيوس») ردت بمدافعها غزو جيش ابن رشيد للكويت، وكانت قاب قوسين أن تسقط في يده، بعدما دحر الشيخ مبارك قبل ذلك بأشهر، في معركة الصريف عام 1901.

لكن الذي فات ابن سعود هو أن حسابات بريطانيا في حمايتها لابن صباح لا تنطبق بحال عليه، وذلك لأن الكويت كانت تملك أهم ميناء طبيعي في الخليج، وأمّا الرياض فلم تكن تهتمّ بريطانيا في شيء، بل كانت زمناً قريبة نائية في قلب الصحراء، لا يميزها عن غيرها في البداية القاحلة سوى الغبار والجهل والجلافة. ثمّ إن بريطانيا بإصباغها الحماية على الشيخ مبارك، إنما كانت تهيبّ له كي يتناول متشجعاً بمهابة مدافع سفنها، فيمدّ حدود مشيخته شمالاً، لتسدّ هذه الحدود الجديدة على العراق (العثماني حينذاك) والبلد الوحيد في الخليج الذي لم يكن لها سلطة عليه) منافذه إلى مياه البحر، ويصير الخليج بذلك بحيرة بريطانية خالصة، بصفته الفارسية والعربية. فذلك ما عنته الكويت لبريطانيا في بداية القرن

جعفر البكلي*

طامحاً سلطان نجد عبد العزيز آل سعود رأسه أمام المندوب البريطاني السامي في العراق بيرسي كوكس، وتهذج صوته، ثم أخذ يتوسل بمذلة، قائلاً: «جنابك انت أبوي وانت أمي. وأنا مستحيل أن أنسى فضلك علي. انتو اللي سويتوني وأخذتوا بإيدي، وانتو اللي رفعتوني وشلتوني. وأنا مستعد، بإشارة منك، لأن أتنازل لك هالحين عن نص مملكتي... لا والله، أنا أتنازل عن مملكتي كلها، إذا جنابك تأمرني». كان هذا كل ما استطاعه السلطان عبد العزيز آل سعود من ردّ على توبيخ ضابط بريطاني له أثناء اجتماعهما في مؤتمر العقير الذي بدأ يوم 21 تشرين الثاني 1922، والذي تمّ فيه رسم الحدود بين سلطنة نجد ومملكة العراق ومشيجة الكويت. وكان سبب التوبيخ البريطاني أن الجنرال كوكس قرّر انتزاع مناطق من بأدية السماوة، وإلحاقها بحدود العراق، متجاهلاً مطالبة ابن سعود بها. فلما أبدى الأخير اعتراضاً على ما اعتبره إجحافاً لحق بحدود سلطنته، ناله من مندوب التاج البريطاني تقريباً استوجب من سلطان نجد أن يردّ عليه بالتوسل والضراعة!

ولقد دُوّن محضر ذلك الاجتماع، بما جرى فيه من توبيخ المندوب السامي البريطاني وتوسلات العاهل السعودي، في وثائق رسمية كتبها الوكيل السياسي البريطاني في البحرين (حينذاك) الكولونيل هارولد ريتشارد باتريك ديكسون (H.R.P. Dickson)، وأرسلها إلى وزارة الخارجية في لندن، يوم 26 تشرين الثاني 1922.

ثمّ بعد أربعة عقود، كتب هارولد ديكسون مذكراته الدبلوماسية عن السنوات المديدة التي عمل فيها سفيراً لحكومة في دول الخليج العربي، ونشرها في كتاب سماه «الكويت وجاراتها»، (نشر في لندن عام 1956). وأعاد سرد الواقعة التي جرت في بلدة العقير بالتفصيل، وكان هو شاهداً عليها، حيث إنه عمل مساعداً و مترجماً لبريسي كوكس في الوفد البريطاني. ولقد سجّل السفير ديكسون في كتابه المذكور، النص الآتي:

«في اليوم السادس للمفاوضات في العقير، لم يطق السير بيرسي كوكس صبراً، واتهم عبد العزيز بن سعود بأنه يتصرف تصرفاً صبيانياً باقتراحه حدوداً عشوائية بين العراق ونجد. ولم يكن السير كوكس يجيد اللغة العربية، فقامت أنا (ديكسون) بالترجمة. ولقد أدّهشني أن أرى سلطان نجد يُؤيخ من قبيل المندوب السامي لحكومة صاحب الجلالة كتلميذ وفتح. ثمّ إن السير كوكس أبلغ ابن سعود بلهجة قاطعة أنه هو من سيخط الحدود بنفسه، بصرف النظر عن كل اعتراض. حينها انهار عبد العزيز وأخذ يتوود ويتوسل، مُعلنًا أن السير بيرسي كوكس هو أبوه وهو أمه، وأنه هو الذي صنعه ورفعه من لا شيء إلى المكانة التي يحتلها، وأنه على استعداد لأن يتخلى عن نصف مملكته، بل عنها كلها إذا أمره السير بيرسي بذلك. إذًا أخذ كوكس قلمًا أحمر، ورسم خطوطاً على خريطة الجزيرة العربية توضح الحدود من الخليج إلى شرقي الأردن» (1).

ثمّ يكمل السفير البريطاني هارولد ديكسون رواية شهادته، فيسجّل النص الآتي:

«قراءة الساعة التاسعة من المساء، حدثت مُقابلة مدهشة. فلقد طلب عبد العزيز بن سعود لقاء السير بيرسي كوكس من جديد. فصحبته إليه. ووجدنا ابن سعود واقفاً وحده، وسط خيمته، وقد بدا عليه الاضطراب. ثمّ بادر عبد العزيز السير كوكس قائلاً له بصوت كئيب: «يا صديقي، لقد حرمتني من نصف مملكتي. والأفضل أن تأخذها كلها، وتدعني أذهب إلى المنفى». وقد ظل ذلك الرجل الضخم واقفاً أمامنا حزينا، ثمّ إنه بغتة أخذ في البكاء» (2).

يا بهجة الروح، جد لي بالوصال

إن قصة العلاقة بين عبد العزيز آل سعود وسلطات الاستعمار البريطاني داخلها دوماً كثير من اللبس أو التهويل، ما جعل عدداً من الحقائق في تلك العلاقة يختلط

الخبير

al-akhbar

رئيس التحرير -
المدير المسؤول -
ابراهيم المصنوع

نائب رئيس التحرير -
بيار ابي صعب

مديرا التحرير -
إيلي شاهوب،
وفيف قاصوه

مجلس التحرير -
محمد زبيب
حسن عليف
مهدي زرافط
إيلي حنا
امك الاندري
شريك كريم

صادرة عن شركة
اخبار بيروت

المكاتب بيروت -
فردان - شارع جونان
- سنتر كونكورد -
الطابق السادس

تلفاكس:
01759500
01759597
ص.ب. 5963/113

الإعلانات
الوكيل الحصري
شركة بروموفيكس
01/788200

التوزيع
شركة الواصل
15/666314-01
03 / 828381

الموقع الإلكتروني
www.al-akhbar.com

صفحات التواصل



/AlakhbarNews



@AlakhbarNews



alakhbarnews